أثر الإسلام على المجتمع الأفريقي خلال القرن 10 هـ/ 16م مملكة سنغاي نموذجاً *

أ. عبد الله عيسى **

* تاريخ التسليم: 14/ 1/ 2014م ، تاريخ القبول: 4/ 6/ 2014م.
** باحث في التاريخ الأفريقي/ جامعة الحسن الثاني/ المغرب.

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوعاً تاريخياً مهماً بعنوان: (**أثر الإسلام على المجتمع الأفريقي خلال القرن 10هـ/ 16م مملكة سنغاي نموذجاً**) ، وقد اشتمل على ثلاثة محاور: خُصِّص المحور الأول لدراسة نشأة مملكة سنغاي، والثاني، التعريف بأهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام بين أهالي مملكة سنغاي، والثالث والأخير، تركَّز على تبيان أثر الإسلام على المجتمع في مملكة سنغاي، ثم تلا ذلك الخاتمة التي تشمل على النتائج والتوصيات، وخلُص البحث إلى أنَّ الإسلام أحدث تغيراً نوعياً في المجتمع، حتى أصبح مجتمعاً إسلامياً بكل معنى الكلمة؛ إذ لا يختلف عن غيره من المجتمعات الإسلامية الأخرى.

الكلمات المفتاحة: أثر، الإسلام، التغيير، المجتمع، أفريقيا، سنغاي.

Impact of Islam on the African society at the 10th century of the Hegira/ 16th century of the Christian era: the example of the Kingdom of Songhay

Abstract:

This study deals with an important historical theme. It is entitled: (Impact of Islam on the African society in the 10th century of the Hijra/ 16th century: Kingdom of Songhay as a Model) .

This study consists of three parts. The first part is about the birth of the Kingdom of Songhay; the second examines the means which contributed to the diffusion of Islam within the population of the Kingdom of Songhay. The third part focuses on the effects of Islam on the society of the Kingdom of Songhay. In the conclusion, I summarized the results of the search and I suggest a number of recommendations. This study showed that Islam deeply transformed the society to be a real Islamic society as any other Islamic societies.

مقدمة:

من المسائل البديهية أنَّ التغيير الاجتماعي عملية مستمرة منذ إنْ وجدت الحياة الإنسانية، على أنَّ ذلك التغيير محكوم بقوى داخلية وخارجية تؤثر عليه سلباً أو إيجاباً. وقد كانت العقيدة الإسلامية التي وصلت مبكراً إلى تلك الربوع ولا شك من القوى الخارجية الهائلة الأثر في مجال التغيير الاجتماعي في مملكة سنغاي. إذ إنها تُعد من دوافع البعث الشامل في كل أوجه حياة الإنسان الأفريقي الذي احتك بمؤثراتها.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الأثر الذي تركه الإسلام في المجتمع الأفريقي خلال القرن 10 هـ/ 16م خاصة، ذلك لأنه وقع منذ اعتناق الأفريقي للإسلام في بلد الدراسة جملة من المتغيرات المهمة في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة، مثل: العادات والتقاليد، ونظام الأسرة، وأخيراً الاحتفال بالمناسبات الدينية، كما تهدف هذه الدراسة أيضاً، إلى تعريف القارئ على أهم مراحل تاريخ مملكة سنغاي، إضافةً إلى أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام في بلد الدراسة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في الرد على بعض الدراسات الغربية المتحاملة أصلاً على الإسلام في أفريقيا، والتي تحاول دائماً قلب الحقائق التاريخية، **فجاءت كتابات بعضِهم استفزازية و مميزة بما يأتي**:

- تحميل الإسلام مسؤولية امّحاء فنون أفريقيا.
- اعتبار اندماج أفريقيا الغربية في دار الإسلام شبيهاً بالاستعمار الأوربي للعالم الجديد.
- الإسلام لم ينتشر بين الأهالي، إلا عن طريق العنف والغزوات، ولم يشمل بشكل جدي إلا علية القوم من موظفين وأمراء. [1]

أمام هذه الأحكام القيمية، وجدت نفسي– وبدافع علمي– أبحث في متون الكتب عن حقيقة وواقع الأمر.

كما تكمن أهمية هذا العمل، في قلة الدراسات العربية المتعلقة بتاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء؛ فنجد عزوف كثير من الباحثين في دراسة هذه المنطقة، ومرد ذلك إلى قلة الوثائق والمصادر، التي تعد– بلا شك الهم الأكبر للباحثين.

إشكالية الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة الآتية:

- كيف نشأت وتطورت مملكة سنغاي؟
- ما أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام في مملكة سنغاي؟
- ما أهم مظاهر تأثير الإسلام على الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي؟
- هل تقبّل أهالي هذه المملكة هذا التغيير، أم عارضوه؟ وفي المقابل، هل تخلوا عن معتقداتهم الدينية القديمة؟

هذه– إذاً– مجمل الأسئلة التي سنعمل على مناقشتها في هذه الدراسة، وهي بطبيعة الحال، لم تخلُ كغيرها من الدراسات من بعض النواقص والعيوب، لأنَّ بلوغ الكمال لله وحده.

وأخيراً، أرجو أن تكون هذه الدراسة بمثابة لَبِنَةٍ جديدة في حقل التاريخ الأفريقي، ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخ مملكة سنغاي.

المحور الأول ـ مراحل نشأة وتطور مملكة سنغاي:

يتبين من خلال استقراء المصادر التاريخية، أنَّ مملكة سنغاي تُشكل ثالث أكبر تنظيم سياسي عرفته المنطقة إلى حدود القرن العاشر الهجري (16م) ؛ حيث كانت في بداية أمرها عبارة عن مملكة صغيرة تابعة لحكم مملكة مالي، قبل أنْ تستقل عنها على يد أحد زعمائها المدعو "سني علي" (1464ـ 1493)، [2]ووصلت سنغاي في عهده إلى أوجها، فتحولت في وقت قصير من مملكة صغيرة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف. [3]

وبما أنَّ المجال لا يسمح بالإسهاب في توسعات سني علي الحربية، فإنَّه يتعين علينا إبراز المشكلات التي واجهته خلال فترة حكمه، وعلى الرغم من الدور الكبير الذي بذله في تأسيس مملكة سنغاي، فإنَّ سني علي كان مكروهاً من قبل شعوب المملكة لقسوته وشراسته، ولاسيما مع علماء تنبكت، ولهذا ما يبرره؛ إذ أنَّ السعدي يصف استيلاءه على تنبكت بأنه: ".. عمل فيها فساداً عظيماً، فحرقها، وقتل فيها خلقاً كثيراً". [4]أما محمود

كعت فيشبهه بالحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق الأموي (ت. 714م) السيّئ السمعة، [5]كما لا يتردد المغيلي في الحكم عليه بأنّه وثني. [6]

وليس لنا في هذا الجانب، إلا أنْ نتساءل بدورنا عن الأسباب التي جعلت كلاً من السعدي وغيره يتحاملون على سني علي، وينعتونه بنعوت ذميمة؟ هل يمكننا أنْ نأخذ بهذه الأقوال، ونعتبر سني علي كافراً يعبد الأصنام، ولا يعرف الصلاة، ولا شرع الإسلام؟ أم نبحث عن الأسباب التي دفعت هؤلاء المؤرخين إلى نعته بتلك الصفات؟

في الحقيقة، إنَّ سني علي كان يغلب عليه طابع البداوة، ولم يكن متفقهاً بالدين، كما هو الحال بالنسبة للأسكيا محمد، ولم يعرف الاستقرار، بل كان دائماً غازياً متنقلاً بجيوشه من معركة إلى أخرى؛ حيث كان همه الأكبر ألا ينازعه أحد في السلطة، وأنْ لا يكون ثمة ولاء لشخص آخر سواه، ولذلك خشي من علماء تنبكت، ومن طوارق مسوفة أنْ يهددوا نفوذه باسم الدين، الأمر الذي جعله يتعرض لهم ويعاملهم بقسوة. [7]

ومهما قيل عن تصرفات سني علي المتشددة والصارمة، فإنَّ ما ذُكر حول التشكيك في إسلامه يحتاج إلى إعادة النظر؛ ذلك لأنه لم يعطِ أحد الدليل القاطع، وعلى العكس، فإنَّ المؤرخ عبد الرحمن السعدي أفاد بميل سني علي لبعض العلماء، [8]وبالإضافة إلى ذلك، كان سني علي يخصص ساحات لأداء الصلاة في شهر رمضان المبارك، [9]كما أكد لنا صاحب الفتاش أنَّ سني علي كان ينطق الشهادتين، [10]وهذا يكفي لدحض تلك المزاعم التي أُشيعت حول شخصية سني علي. وربما يؤخذ عليه التناقض الذي أظهره عند إدارته لدفة حكمه، حيث حاول التوفيق بين الأنماط الأفريقية المرتكزة على السحر والشعوذة، وبين ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وقد كان في هذا التناقض زعزعة لسلطته، ولاسيما أنَّ المد الإسلامي في هذه الحقبة تغلغل بصورة فعالة بين أهالي سنغاي.

توفي سني علي في ظروف غامضة عام 878هـ/ 1493م أثناء عودته من حملته ضد بلاد كرم (Kourm [11]) والجدير بالذكر أنَّ سني علي بقي في الحكم حوالي سبعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، حسب رواية صاحب الفتاش. [12]

وبعد وفاته خلفه ابنه سني بار، الذي لم يتجاوز سنة واحدة على العرش، وسرعان ما قام عليه أحد القواد العسكريين الكبار، وأزاحه عن الحُكم، واستحوذ عليه، ولُقِبَ بـ "أسكيا"[13]، وهو محمد توري الذي أعلن عن تأسيس أسرة جديدة عُرفت بأسرة أسكيا، ودام عهدها قرابة قرن من الزمن. شهدت خلالها مملكة سنغاي فترة من الرخاء والازدهار قل نظيرهما، غير أنّه مباشرة بعد وفاة السلطان أسكيا داوود عام 1582م، دخلت البلاد في مرحلة اتسمت بالضعف والوهن بسبب هجومات الفولانيين والبمبارا والطوارق عليها،

مما ساعد بعض الأقاليم على الاستقلال عن الحكم المركزي في كاو. (Cao) [14]

وفي ظل هذه الأوضاع المتدهورة وصلت طلائع الحملة السعدية التي أرسلها أحمد المنصور السعدي عام 999هـ/ 1591م، فانهارت على أثر ذلك مملكة سنغاي، ونزح ما تبقى من أمراء الأسكيين إلى مدينة دندي في أقصى جنوب شرق المملكة المتهاوية.

المحور الثاني ـ أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام في مملكة سنغاي:

لقد انتشر الإسلام في مملكة سنغاي بشهادة كثير من أصحاب مصادرنا التاريخية[15]، بفضل ثلاث وسائل رئيسة، وهي: طرق القوافل التجارية، والتجارُ العربُ المنتمون لشمال أفريقيا ومصر، والدعاة والمبشرون الأفارقة، غير أنَّ العامل الأهم في نظرنا والذي ساعد في انتشار الإسلام في تلك المنطقة يعود إلى الدين الإسلامي نفسه؛ فهو ذو نظام اجتماعي راق يدعو إلى المساواة بين الناس، لا يُقيم وزناً لفوارق اللون أو الطبقة، وإنما الفارق من خلال ما يفعله العبد من أعمال صالحة، لذلك فإنَّ الدين الإسلامي كثيراً ما يوصف بأنه أكثر الأديان ديمقراطية.

ومنذ اكتمال مراحل التعريب وسيادة الدين الإسلامي في مناطق المغرب العربي في القرن الثاني الهجري (8م) ، بدأت القبائل العربية تتوغل نحو الجنوب حتى وصلت إلى السودان الغربي، ولم تقف الصحراء عائقاً دون تواصل الروابط والصلات المتعددة، فقد كانت طرق ما وراء الصحراء ومسالكها ومنافذها من العوامل المهمة التي ساعدت في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية إلى مملكة سنغاي.

وبدأت رقعة الإسلام في حالة انتشار مستمر، حتى شبهها بعض المؤرخين، كبقعة الزيت، لا سيما بعد سقوط غانة الوثنية عام 1076م على أيدي المرابطين. ونجم عن هذا المد القادم من الشمال، قيام ممالك أفريقية إسلامية بلغت تقدماً حضارياً ملحوظاً نتيجة اعتناقها الإسلام.

ومثلما كانت طرق القوافل التجارية شرياناً للمعاملات الاقتصادية بين مراكز الشمال الأفريقي وبين الغرب الأفريقي، فقد ظلت في الوقت نفسه إشعاعاً للمؤثرات الثقافية؛ حيث أصبحت المحطات المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى، أماكن لاحتكاك الأفكار تأثيراً وتأثراً، وذلك بفضل ما تقدمه للمسافرين من مأوى وسبل الراحة والاستجمام. كما ازدهرت المراكز التجارية المهمة في مملكة سنغاي من الناحيتين، الاقتصادية والثقافية وأشهرها، كاو، و جني، وتنبكت. وإلى جانب انتعاش المجالات الاقتصادية، فقد أدت بعض المراكز في الشمال الأفريقي مثل، طرابلس وتلمسان ومراكش والقاهرة دوراً بارزاً في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في تلك المناطق.[16]

ومما لا شك فيه، أنَّ مملكتي مالي وسنغاي لم تصلا إلى ما وصلا إليه من عظمة وقوة إلا بعد أنْ أضحى الإسلام عصب قوتهما الروحية والمادية، وصارت اللغة العربية لغة الكتابة الرسمية.

وقد كان التاجر المسلم داعية لدينه يجمع بين نشر الدعوة الإسلامية وبيع سلعته، فالتجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة بمن يتعامل معهم، وبخاصة وإن كان يتحلى بالصدق والأمانة والخلق الحسن، وهذه المثل الأخلاقية السامية كثيراً ما تتوافر لدى التاجر المسلم الذي سرعان ما يلفت إليه الأنظار عند دخوله لقرية وثنية، وذلك نظراً لكثرة وضوئه، ونظافته، وانتظام أوقات صلاته وعبادته. وقد جعلته هذه الصفات الحميدة بالإضافة إلى نظافة البدن والملبس أهلاً لثقة الأهالي الوثنيين، وقدوة حسنة للاقتداء به وتقليده.

والجدير بالذكر، إنَّ دور التجار العرب لم يقتصر على مجالات التجارة والأنشطة الاقتصادية فحسب، بل تعداها إلى التبشير بالدين الإسلامي، وتعميق الصلات الثقافية بنشر اللغة العربية، وبناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن. وهكذا، أضحى التجار العرب يقومون بمهمة الدعاة المسلمين، إلى جانب نشاطهم التجاري، فحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية. وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بالأفارقة أنْ حدث التزاوج والمصاهرة، وانتشار الإسلام تدريجياً وسلمياً في تلك البقاع. (17)

فالدعاة، سواء أكانوا من العرب أم من الوطنيين الأفارقة، يعدون وسيلة من الوسائل التي ساعدت على ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وقد كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، ويفقهونهم في أمور دينهم، وذلك لإلمامهم بأصول الدين والشريعة الإسلامية ومبادئها السامية. لذا حظي هؤلاء الدعاة بتقدير الأهالي لهم، إذ أصبحت كثير من قرى سنغاي في أيام الأسكيا محمد الكبير تضم كلٌّ منها داراً لاستقبال هؤلاء المعلمين الفقهاء الذين كانوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام.(18)ويلاحظ أنَّ معظم أولئك المعلمين، قد درسوا في المراكز الثقافية في الشمال الأفريقي ومصر، وتأهلوا للدعوة الإسلامية بين الأهالي والتأثير فيهم.

وتُطالعنا المصادر التاريخية، على أنَّ السلطان الأسكيا الحاج محمد كان حريصاً على الاقتداء بالدعاة المسلمين، وعلى إرسال طلاب العلم إلى تلك المنارات العربية الإسلامية في الشمال الأفريقي مثل فاس والقاهرة وطرابلس لينهلوا من منابعها ويعودوا إلى أوطانهم ليساهموا بشكل أو بآخر في نشر الإسلام بين ربوعها. وقد وجد الدعاة تشجيعاً كبيراً من الأسكيا الحاج محمد ومن جهاته الرسمية، وفي ظل هذا التشجيع، بدأ الدعاة والفقهاء والمحسنون في تأسيس المدارس التي كانت قِبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء

دون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بنجاح باهر بين أهالي سنغاي. وأصبحت هذه المدارس تتكاثر وتزدهر حتى أنَّ بعضها أضحى مركز إشعاع حضارياً يستقطب أبناء مملكة سنغاي بصفة خاصة، وأبناء أفريقيا الغربية بصفة عامة، دون اعتبار لفارق الدين أو اللون.[19]

وتجلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في سنغاي في عهد الأسكيا محمد وخلفائه، وترتب عليها تكوين حكومة ونظم إدارية متقدمة، بحيث انتقلت منها حياة المجتمعات القبلية المتفككة إلى مجتمع الدولة المركزية، وحدث الامتزاج الكامل بين النظم العربية الإسلامية وبين الأنماط الأفريقية المحلية، وتكون عنصر جديد يوائم بين ما غرسه الإسلام من ثقافة عربية، وبين بعض الموروث من التقاليد والأنماط الأفريقية؛ أي برزت الشخصية الأفريقية في إطار إسلامي.

والمعروف أنَّ ملوك الممالك الأفريقية وسلاطينها، قد درجوا على الخروج إلى الحج في مواكب حافلة تضم أعداداً كبيرة من الأفارقة، وقد أسهمت هذه الرحلات الحجية في توطيد العلاقات التجارية والثقافية بين الممالك الأفريقية وبين أقطار المغرب العربي ومصر والحجاز، كما ساعدت في التعريف بتلك الممالك، ونتيجةً لذلك، توافد إليها التجار والعلماء والفقهاء، من شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي.

المحور الثالث ـ أثر الإسلام على مجتمع سنغاي:

إنَّ المؤثرات العربية الإسلامية حملت جُملة من التغيّرات المهمة في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة لشعوب مملكة سنغاي، كالعادات والتقاليد، ونظام الأسرة، أدت هذه المؤثرات في خاتمة المطاف إلى حدوث امتزاج بين العادات والتقاليد العربية الإسلامية الوافدة وبين العادات والتقاليد الأفريقية المتوارثة.

أ. الانتساب للأب بدلاً من نظام الأمومة:

نعلم من خلال استقراء بعض المصادر التاريخية، أنَّ معظم المجتمعات الأفريقية– وخاصة مجتمع السنغاي يجعل القرابة من جهة الأم أساساً لتكوين القبيلة أو العشيرة، فالأولاد لا يعدّون أعضاء في جماعة أبيهم، وإنما يعدّون أعضاء من جماعة الأم، والحقوق والالتزامات التي مردها الانتماء إلى جماعة ذات قرابة واحدة تترتب في العلاقة بين المرء وأقاربه لأمه، ومن ثم فإنَّ الأقارب من جهة الأم يمثلون في حياة الأبناء دوراً يفوق في أهميته دور الأقارب من جهة الأب.[20]

والدليل على ذلك، أنَّ الخال في هذه المجتمعات التي تنتسب إلى الأم بدل الأب له من الحقوق وعليه من الواجبات ما يتجاوز كثيراً حقوق الأب وواجباته قبل أولاده، فالرجل في

المجتمع الأفريقي كان يُسمى باسم عائلة أمه أو قبيلتها، والنظام العائلي تسيطر عليه الأم، والقاعدة المتبعة في هذه المجتمعات هي الوراثة من ناحية الأم، وقد أكد لنا القلقشندي ذلك بقوله: ".. على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت».[21]

وبدخول الإسلام إلى مملكة سنغاي أخذت هذه العادات الأرواحية [22]تندثر شيئاً فشيئاً، وبدأ الأهالي يسمَون بالأسماء العربية، وأخذت الفوارق الطبقية والعائلية بينهم تتلاشى، وساعد كل ذلك على تطور دور الرجل في المجتمع، وأصبح الفرد يُنسب إلى والده ويحمل اسمه، فالإسلام– كما نعلم– يخص القرابة الأبوية بالقدر الأكبر من الحقوق والواجبات.

وقد تخلت العديد من المجموعات التي اعتنقت الإسلام عن هذا النظام الأمومي، وحل محله النظام الإسلامي، ولمّا كان من العسير على مجتمع عاش حياته عبر قرون طويلة في ظل نظام أمومي أن يتخلى عنه بسهولة، كان طبيعياً أيضاً أن يتفاوت مدى تخلي هذه المجتمعات عن هذا النظام تبعاً لحداثة أو عراقة إسلامها، فهناك مجتمعات أمومية اعتنقت الإسلام منذ القدم، وتمكنت من إحلال النظام الإسلامي، وهناك – على العكس– مجتمعات ظلت بنظامها الأمومي على الرغم من إسلامها. [23]ويبدو أنَّ عملية التغيير في مجتمع سنغاي نحو النظام الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً كان يحتاج إلى وقت ليس بالقصير؛ نظراً لرسوخ أفكار وعادات متوارثة تصعب معها عملية التغيير. ولكن، في خاتمة المطاف تمكن الإسلام من القضاء على العديد من العادات الأرواحية ليس بشكل نهائي ومن بينها مسألة الانتساب إلى الأم بدلاً من الأب.

ب. العادات والتقاليد:

لا ضير أنْ نتعرف على بعض المظاهر والتقاليد الاجتماعية التي قام بها أهالي سنغاي عند ممارستهم لحياتهم اليومية، وعن موقف الإسلام منها.

لقد عُرف عن الأفريقيين عامة ولع شديد بالفرح والطرب، وانتشر بينهم مَثَلٌ يُفيد بأنَّ عادة السمر شيء ثمين ما دامت أنّها لن توجد في الآخرة، ويبدو أنّهم سعوا إلى الإكثار من حلقات السمر هذه ترويحاً عن النفوس من عناء العمل اليومي وعناء المشكلات اليومية، فكانوا يعقدون لقاءاتهم، وبخاصة في الأيام الصيفية والليالي المقمرة، وكانوا يتجاذبون فيما بينهم مختلف أطراف الحديث، وقد يمارسون بعض الألعاب فيما بينهم، ولم تقتصر عادة السمر على العامة، بل شغلت أيضاً الفئة الحاكمة، ومعلوم أن الإسلام لم يمنع لقاءات السمر والطرب شريطة ألا يغتاب الفرد غيره، أو تؤدي إلى الاختلاط بين الجنسين حيث قد يُفضي ذلك إلى تجاوزات أخلاقية.

ومن العادات أيضاً- التي تأثروا بها: حسن العشرة، وإيثار الغير على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وكرمهم الحاتمي مع الغرباء، وغير ذلك من العادات الحسنة.

وإذا كان الإسلام قد أعطى معنى سامياً للحياة، فهو أيضاً حدد مفهوم ما بعد الموت، فجعل من أعمال الفرد وسيلة توصله إما إلى الجنة أو النار. لكن، كيف فُهمت عملية الانتقال من الحياة الدنيوية إلى الآخروية؟

لقد رأى أهالي سنغاي الموت شيئاً لا مفر منه، وحدد لهم الإسلام المسؤول عن الفناء وهو الله عز في علاه، ورأوا الموت مرحلة انتقالية إلى عالم الآخرة والحساب؛ لذلك تقبل الأهالي هذه الحقيقة، واستعدوا للموت بالأعمال الصالحة والتقرب إلى المولى عز وجل، وكان إذا مات منهم واحد، قاموا بإجراءات دفنه كما دعا إليها الدين المحمدي، ومن ثم لم نعد نسمع عن دفن بعض الأحياء مع سيدهم الميت لخدمته في قبره كما جرت العادة الأرواحية، أو عن طقوس أرواحية مرافقة لعملية الدفن.[24]

بموازاة مع ذلك، أدى توافد المؤثرات العربية الإسلامية إلى المنطقة إلى اختفاء العديد من العادات الأرواحية التي كانت سائدة في تلك البلاد، ومنها: تقديم القرابين، وقتل الأطفال وبيعهم ورهنهم، والتخلص من التوأم، وعادة شرب الخمر والمسكرات كافة المنتشرة بين الأهالي، إلا أنَّ تحريم العقيدة الإسلامية شرب الخمر المسكرات كافة قد أثر في نفوسهم وفي عاداتهم، مما ساعد على تجنبها، وإقبال الناس على أعمال الخير، والكسب الحلال، وامتهان المهن الشريفة.[25]

ومن الظواهر البارزة- التي تطلعنا عليها بعض المصادر في مجتمع- سنغاي ظاهرة الحجاب، فنساء أفريقيا لم يعرفن الحِجاب بل كُنّ سافرات إلى أن اعتنقن الإسلام، وبدأت بعض الفئات تلتزم بارتداء الحِجاب الذي يشبه كثيراً نظام الحِجاب السائد في البلاد العربية، وقد تأثر الحجاج الأفارقة بما شاهدوه من حجاب النساء في مكة والمدينة عندما كانوا يؤدون فريضة الحج، وبالتالي عندما عادوا إلى بلادهم سعوا إلى إلزام نسائهم بالحِجاب، إضافة إلى تأثرهم بالقبائل العربية التي هاجرت إلى المنطقة، وعلى الرغم من ذلك فلا يمكننا تعميم هذا الأمر على كافة القبائل، فبعضها التزم به، وبعضها الآخر لم يلتزم به رغم إسلامه.

ومن مظاهر تأثر الحياة الدينية على الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي- أيام أسكيا الحاج محمد- ما بذله هذا الأسكيا من جهد كبير في سبيل الخروج بالمملكة من طور القبيلة إلى طور الدولة المركزية التي صهرت أهالي هذه المملكة في بوتقة الوطن الواحد،[26] فالإسلام لا يقر بالعصبية القبلية وما يتبعها من احتقار متبادل وكراهية متقاسمة بين

القبائل، وإنما يُبشر– على العكس– بالمودة والإخاء بين الناس، فاعتناق الإسلام عامل مهم في إضعاف العصبية، وتحقيق التوافق والانسجام بين مختلف الجماعات البشرية المختلفة عرقاً ونسباً، والإسلام وإن كان يُعجّل بتفكيك النظام القبلي فإنه لا يترك الفرد فريسة الشعور بالضياع، وإنما يمنحه بديلاً لمجتمعه القبلي، مجتمعاً أرحب تسوده قيم المودة والإخاء، فدخول الأفريقي في المجتمع الإسلامي لا يجعل منه مواطناً من الدرجة الثانية، بل يساوي بينه وبين غيره من المسلمين أياً كانت صورهم وألوانهم، وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾. (27)

مما سبق، يتبين لنا أنَّ العادات والتقاليد الأرواحية قد أخذت بالتفكك شيئاً فشيئاً بدخول التأثيرات العربية الإسلامية عليها، وصحيح أنَّ هذه العادات احتاجت إلى وقت ليس بالقصير لكي تزول، وهذا أمر طبيعي؛ لأن العادات والتقاليد تعدّ جزءاً مهماً من حياة الإنسان ومن الصعب التحول عنها بسهولة ويسر إلا أنَّ امتزاج التقاليد الأرواحية المتوارثة بالتقاليد العربية الإسلامية الوافدة قد أدى في خاتمة المطاف إلى ظهور بما يعرف بالتقاليد الإسلامية الأفريقية.

ت. طريقة المأكل والملبس:

ومن المظاهر الاجتماعية التي حاكى فيها أهالي مملكة سنغاي الأنماط العربية الإسلامية طريقة المأكل والملبس، لقد تأثروا بالنمط العربي المغربي وخاصة في طريقة ملبسهم، يقول القلقشندي:

".. لباسهم عمائم مثل العرب، وقماشهم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة واللطف تُسمى الكميصا، ولباسهم شبيه بلباس المغاربة، جلباب و دراريع بلا تفريج».(28)

واللباس– كما نعلم– يعدّ نوعاً من الأناقة يضفي على صاحبه الاحترام؛ لذلك حرص الناس على ارتداء أنسب ما يملكون، وخاصة في المناسبات الاجتماعية والأعياد الدينية، فقد كان الوجهاء حريصين على أن يظهروا في لباس زاهٍ فضفاض أمام العامة، في حين أنَّ عامة الناس كانوا يلبسون حسب قدرتهم، وهناك من كان يستخدم الجلود للاكتسا، ء وخاصة في فصل الشتاء في مناطق الصحراء، غير أنَّ معظم الباحثين قد أجمعوا على أنَّ أهالي سنغاي كانوا قد تجاوزوا مرحلة العُري منذ زمن طويل، وخاصة بعد انتشار الإسلام، وأصبح الناس كافة في هذا العهد يقتنون الملابس؛ وذلك لأن الأهالي متأثرون إلى درجة كبيرة جداً بطريقة المدنية الإسلامية في مختلف سلوكياتهم ابتداءً من الأفكار والتطورات

الشخصية للفرد والجماعة وانتهاءً باللباس، و كل ذلك كان قائماً على أساس تأثير القيم الدينية.[29]

أما عن المأكل، فقد انتقل العديد من الأطعمة التي كانت شائعة في الشمال الأفريقي إلى مملكة سنغاي؛ إذ كان الكُسكُس الأكلة المفضلة والرئيسية على موائدهم، بالإضافة إلى لحم الغنم المشوي، والذرة والعسل ولبن المواشي والقصب، ولقد أدخل المغاربة العديد من عاداتهم في طريقة الأكل، وخاصة فيما يتعلق بوجبات الطعام اليومية، وتتمثل في وجبة العشاء، حيث كان سكان المنطقة قبل ذلك يكتفون بشرب اللبن في العشاء مع بعض الفطائر، أما وجبة الإفطار فكانت تتميز بالأطعمة الدسمة من لحوم وحساء.[30]

ث. الزواج ونظام الأسرة:

تمتعت المرأة بمكانة مرموقة، حيث كانت الملكة الزوجة والملكة الأم أحياناً تشغلان مناصب مهمة في البلاط الملكي، وتشاركان مشاركة فعلية في السلطة، وقد عمل أسكيا الحاج محمد على صون مكانة المرأة، وتوجيه سلوكها العام توجيهاً إسلامياً صادقاً، وإنَّ بعض العادات والتقاليد الأفريقية قد أعطت نوعاً من الحرية للمرأة في العديد من الأمور، منها حرية اختيار زوجها، فأغلب القبائل تسمح بذلك، ولا تسمح لأبيها أو من يقوم مقامه بإجبارها على الزواج. والزواج في المجتمعات الأفريقية ولا سيما مجتمع سنغاي قبل تعرضه للمؤثرات العربية الإسلامية كان غير منتظم، ولا يستند إلى ضوابط شرعية، بل كان يعتمد أساساً على موروثات فوضوية يسودها التفكك والإنحلال، إذ كانت الأسرة في هذه المجتمعات تأخذ شكل الأسرة (الممتدة) العائلة، وفي هذا الشكل تمتد الأسرة لتشمل– فضلاً عن الأب والأم والأولاد– إخوة الأب وأولادهم والأحفاد، ورب الأسرة عادة ما يكون أكبر أعضائها من الذكور، وقد يعزل رب الأسرة إذا لم يكن في مستوى المسؤولية، ويحل عضو أصغر منه مكان، ولرب الأسرة على أفرادها– في العادة– نفس الحقوق التي للأب في الأسرة بمعناها الضيق.[31]

وبعد اعتناق هذه الشعوب للإسلام، أخذ نظام الأسرة الممتدة يختفي بالتدريج حيث يُحرِّم الإسلام الزواج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد، وذلك خلافاً للعادات الأرواحية التي تتيح تعدد الزوجات بدون تحديد، والإسلام من ناحية يركز على الحقوق والواجبات في العلاقة بين الأب وأولاده، ومن ناحية أخرى يسمح باقتسام أموال المورث عند وفاته، ويسهم ذلك في ازدياد أهمية الأسرة بمعناها الضيق على حساب الأسرة الممتدة، فتزداد أهمية الأب، وتقل بالمقابل أهمية رب الأسرة، وتختفي الملكية المشتركة لتحل محلها الملكية الخاصة أو الفردية، ومن العوامل التي أسهمت في زوال الأسرة الممتدة اختفاء ظاهرة عبادة أرواح الأسلاف بعد اعتناقهم الإسلام.[32]

أما فيما يخص موضوع أهلية الزوجة، فإنَّ أغلب القبائل لا تنتقص أو تلغي أهلية الزوجة المالية بعد الزواج، فالمرأة تظل مالكة لأموالها التي كانت لها قبل الزواج، أو التي اكتسبتها أثناءه، وليس للزوج– كقاعدة عامة– أية سلطة على هذه الأموال، فالمرأة هي صاحبة التصرف فيها، ومنهن من تملك مزارع أو ماشية وذلك حسب طبيعة حياتها الاقتصادية، [33]هذا بالإضافة إلى الموروثات الاجتماعية الأخرى كعدم المساواة في الميراث بين الذكور والإناث، ففي بعض المجتمعات تُحرَم المرأة من وراثة الأموال، وفي المجتمعات الرعوية يجري العرف بحرمان المرأة من وراثة الماشية، وحرمانها من هذا الحق تفسره نظرة هذه المجتمعات إلى الماشية بوصفها أوثق صلة بالرجل منها بالنساء.

الخاتمة:

يتضح مما تقدم، أنَّ الإسلام قد أحدث تغيّراً مهماً في حياة الفرد، وهذا التحول، لم يكن ليحدث والثقافة الأرواحية ما زال منتشرة انتشاراً كبيراً، فقد تخلت شعوبٌ أفريقية كثيرة عن دياناتها الأرواحية منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م) ، وأصبحت تقاليدها تتفكك بمرور السنوات حتى لم تعد تقتصر إلا على بعض العادات القليلة. ومن هنا يمكننا القول وبكل اطمئنان: إنّ الإسلام قد أدخل إلى حوزته الثقافية مجالاً جغرافياً جديداً تمثل في مملكة سنغاي، التي أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية الوسيطية القوية، لاسيما أنّها قد أمدتها ببعض مصادر القوى الاقتصادية، وبذلك لم تنعزل سنغاي عن تطورات العالم الإسلامي في العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، بل ساهمت فيه وتأثرت بأحداثه، فعاشت مرحلة قوته وتأثرت بضعفه، مما يعني أنَّ تشكيل تاريخ مملكة سنغاي لم يتم خارج أو على هامش التاريخ الإسلامي. فانتظم المجتمع فكرياً ودينياً وسياسياً واقتصادياً وفق التصور الإسلامي الذي عوّض بالتدريج المنظور الأرواحي الذي كان سائداً بالمنطقة، فأصبح مجتمعاً إسلامياً لا يختلف عن باقي مجتمعات العالم الإسلامي، بل ربما فاقه افي كثير من الأحيان، وذلك بالنظر إلى الصعوبات والعراقيل الجمّة التي واجهت مسيرة الإسلام بالمجالات الأفريقية.

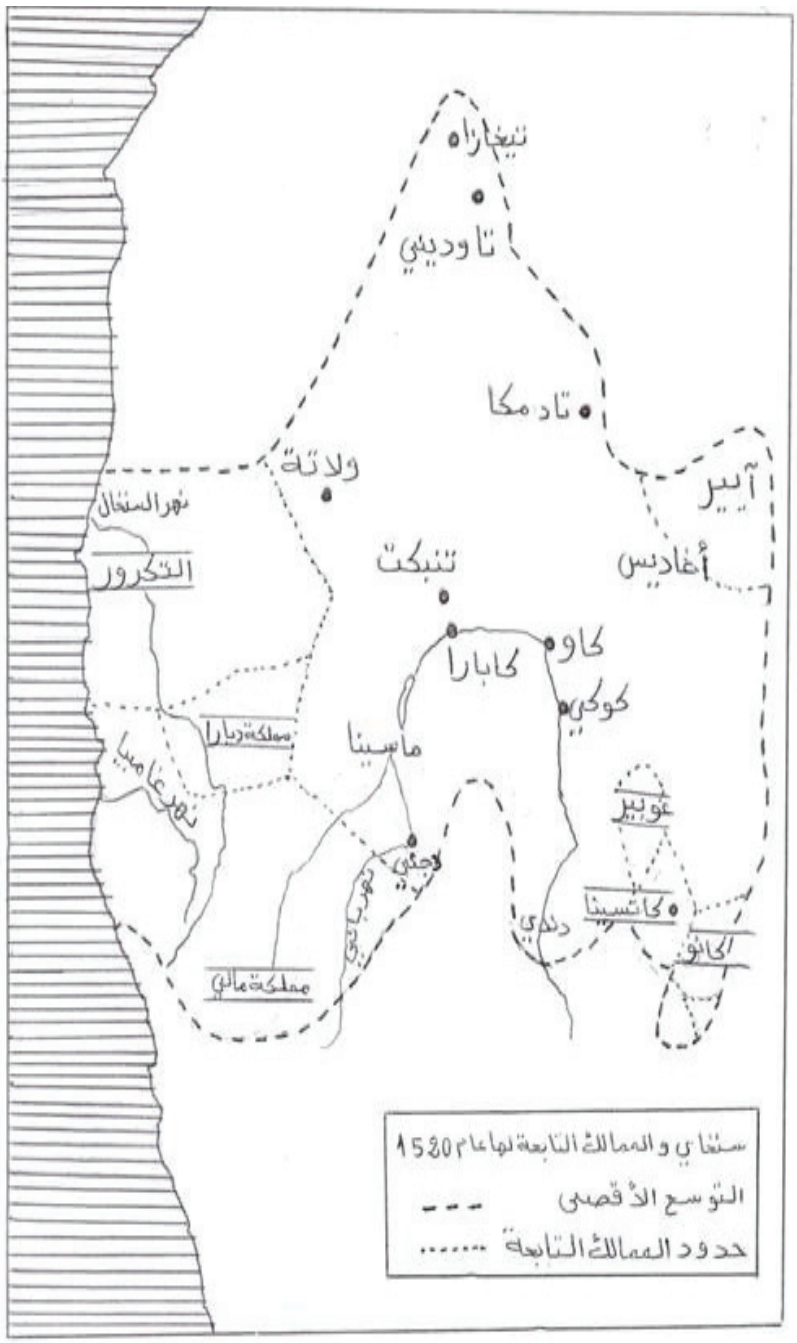

(من عمل الباحث)

الهوامش:

1. Delafosse (M) , Les noirs de l'Afrique Payot, Paris, 1941, P. 48.
2. لا نعرف الشيء الكثير عن فترة حكم آل سني إلا لائحتين لملوكها، الأولى مطولة جاءت عند المؤرخ عبد الرحمن السعدي (تضم 19 ملكاً) ، والثانية مختصرة أتت عند كعت (7 ملوك) .
3. عبد الرحمن، السعدي، تاريخ السودان، ترجمه للفرنسية أوكتاف هوداس، بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، 1981، ص. 64.
4. المصدر نفسه، ص. 65.
5. محمود، كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، باريس، ميزونوف، الطبعة الأولى، 1981، ص. 43.
6. محمد بن عبد الكريم، المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص. 39.
7. Trimingham (J. S) , A History of Islam in West Africa, Oxford, 1962, p. 93.
8. عبد الرحمن، السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص. 66.
9. Elias (N) , History of Timbuktu: the Role of Muslim scholors and notables 1400- 1900, Cambridge, 1983, p. 11.
10. محمود، كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سابق، ص. 43.
11. عبد الرحمن، السعدي، المصدر نفسه، ص. 71.
12. محمود، كعت، المصدر نفسه، ص. 52.
13. أسكيا: تعني الملك أو السلطان.
14. أحمد، الشكري، «التأثيرات الثقافية المتبادلة ما بين المغرب و دول أفريقيا جنوبي الصحراء (الإسلام واللغة العربية) »، ضمن ندوة التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، طرابلس الجماهيرية، دار الوليد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004، ص. 272.
15. أنظر على سبيل المثال: أبو الحسن علي، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، الجزء الأول، ص. 339.

16. جميلة، إمحمد التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493 1528، ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، 1998، ص. 157.

17. جميلة، إمحمد التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493 1528، مرجع سابق، ص. 159.

18. حسن، حسن إبراهيم، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1963، ص. 213.

19. جميلة، إمحمد التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493–1528م، مرجع سابق، ص. 159.

20. Barry (B.) , La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan, 1988, p. 26.

21. أحمد بن علي، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، الجزء الخامس، ص. 294.

22. الأرواحية: مصطلح حديث، يُستعمل في حقل الدراسات الأفريقية للدلالة على المعتقدات الأفريقية القديمة، والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: (Animisme) أو (Fétichisme) .

23. محمود، سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية، 1969، ص. 97.

24. محمود، كعت، تاريخ الفتاش، مصدر سابق، ص. 11.

25. نعيم، قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1974، ص. 173.

26. لقد قام الأسكيون بحروب سياسية قبلية كثيرة، أنظر: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 74–77.

27. سورة الحجرات، الآية 13.

28. أحمد بن علي، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص. 299.

29. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دمشق، دار الأرقم، الطبعة الأولى، 2009، ص. 376.

30. أسماء، أحمد الأحمر، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية، طرابلس، منشورات الجامعة المغاربية، 2008، ص. 164.

31. محمود، سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا، مرجع سابق، ص. 101.

32. المرجع نفسه، ص. 102.

33. عبد القادر، زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، مرجع سابق، ص. 129.

المصادر والمراجع:

أولا ـ المراجع العربية:

1. السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، ترجمة من الفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، 1981.
2. الشكري، أحمد، «التأثيرات الثقافية المتبادلة ما بين المغرب ودول أفريقيا جنوبي الصحراء (الإسلام واللغة العربية) »، ضمن ندوة التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، طرابلس الجماهيرية، دار الوليد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004.
3. الشكري، أحمد، الإسلام والمجتمع السوداني، أبو ظبي، المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، 1999.
4. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، الجزء الخامس.
5. الأحمر، أسماء أحمد، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية، طرابلس، منشورات الجامعة المغاربية، 2008.
6. المغيلي، محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1974.
7. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دمشق، دار الأرقم، الطبعة الأولى، 2009.
8. إمحمد التكيتك، جميلة، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493 1528، ليبيا، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، الطبعة الأولى، 1998.
9. حسن إبراهيم، حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1963.
10. زناتي، محمود سلام، الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية، 1969.

11. قداح، نعيم، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1974.

12. كعت، محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وآكابر الناس، باريس، ميزونوف، الطبعة الأولى، 1981.

ثانياً ـ والمراجع الأجنبية:

1. *Barry (B.) , La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan, 1988.*
2. *Delafosse (M) , Les noirs de l'Afrique Payot, Paris, 1941.*
3. *Elias (N) , History of Timbuktu: the Role of Muslim scholors and notables 1400- 1900, Cambridge, 1983.*
4. *Trimingham (J. S) , A History of Islam in West Africa, Oxford, 1962.*